من تراثنا

ابن غنام

يشعر المتتبع لتاريخ وسط الجزيرة العربية عامة ، ونجد خاصة أن هناك فجوة واسعة ·· وحلقة مفقودة فيما بين القرن الخامس الى القرن الحادي عشر الهجري ، اذا استثنينا مكة والمدينة ، حيث الحرمان الشريفان ، وكونهما ماوى الأفئدة ومعط الانظار ·

ففي القرن الخامس وما قبله كانت هناك ومضات تاريخية توجد متناثرة في كتب التاريخ ، وقد تاتي عرضا في سرد الأحداث التاريخية ·

ذلك أن نجدا مع ما فيها من أحداث تاريخية هامة ، لم تحظ بمؤرخين يرصدون تلك الاحداث ويعتنون بتدوينها ، لأن جل المؤرخين يبحثون عن الوقائع المهمة في حياة الحكام والساسة من جهة ، ومن أخرى فموطن هؤلاء الذين دونوا الاحداث التاريخية كان مقر الحكام ، وموطن التجمع العلمي في الحواضر الاسلامية في دمشق ، وبغداد ، ومصر ، والأندلس ، والقيروان ·

لم يكن في نجد من الاحداث المهمة في نظرهم ما يستوجب الافراد بحديث مستقل ، اذ لا تعدو تلك الاحداث أن تكون خبرا جانبيا عن تولية وال ، أو مشاركة بعض الافراد من القبائل في الجيوش الاسلامية ·· أو انتقال قبيلة من مكان لآخر ·

ولذا كانت نجد حتى بدء ضعف الدولة العباسية تارة تنفرد بوال في اليمامة وهجر ، وأخرى ترتبط بوالي المدينة او مكة ، أو يهيمن عليها والي البصرة ·

مؤرخ وتاريخ

بقلم الدكتور : محمد بن سعد الشويعر

ولبعدها عن قاعدة الخلافة العباسية ، ضعفت الهيمنة العباسية عليها نتيجة للتفكك الذي دب في دولة الاسلام الممثلة في الخلافة العباسية ، ونشأ تبعا لذلك دويلات متعددة ، مثلما نشأ في أطراف الدولة العباسية في مصر ، والمغرب ، وخراسان وغيرها . وان أقوى الدويلات التي نشأت في نجد :

١ ـ دولة الأخيضريين بين عام ٢٥٣ هـ وعام ٣١٧ هـ .

٢ ـ دولة القرامطة التي خلفت الأخيضريين بين عام ٣١٧ هـ الى عام ٤٧٠ هـ .

ولعل نهاية القرن الخامس الهجري آخر ما يستطيع الباحث أن يجد فيه ذكرا لنجد تاريخيا وأحداثا . حتى القرن الثاني عشر عندما ظهر حدث عظيم في تاريخ نجد خاصة ، والجزيرة العربية عامة ، ولا نستطيع أن نقول بأن هذه الفجوة بين هذين التاريخين عديمة الأحداث ، ذلك أن الباحث لن ييأس أو يفقد الأمل في العثور على شذرات تضيء المعالم عن أشياء كنا نعتقدها في حكم المفقود ، وتتمثل هذه الأشياء في وثائق عقارية أو تاريخية أو رحلات أو معلومات عابرة كما جاء في سوابق ابن بشر ، وأحداث ابن عيسى ورحلة ناصر خسرو مثلا .

ذلك الحدث العظيم هو ظهور الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله بدعوته الاصلاحية المجددة ، ومؤازرة الامام محمد بن سعود لها ، حتى استقامت دولة ذات كيان ، فأصبحت هذه الديار محط الأنظار .. ومأوى الأفئدة ، واستقطبت اهتمام

العـالم ، لأن هذه الدعوة الاصلاحية لم تكن حدثا داخليا يقتصر على أبناء الجزيرة وحدهم ، ولكنه كـان ايقاظا فكريا شد الأذهان ، وجذب الأفئدة ، واشرأبت اليـه الاعناق في العالم الاسلامي بأسره ·

ابن غنام (٠٠٠ ـ ١٢٢٥ هـ) (٠٠٠ ـ ١٨١١ م) وتاريخه :

ومؤرخنا في هذه الزاوية حسين بن أبي بكر بن غنام ، يرجع نسبه الى قبيلة تميم من أكبر القبائل وأوسعها انتشارا في وسط الجزيرة ، من سكان المبرز بالاحساء، وفيها ولد وتعلم ، حيث أخذ العلم فيهـا عن مشايخ مـن أهلها لـم نجد أحدا ذكر أسماءهم ·

لم يحدد الباحثون عن حياة ابن غنام السنة التي ولد فيهـا ، لأن عادة أبناء جيله عدم الاهتمام بتدوين السنة التي يولد فيها أي شخص ، وكلما أثبتوه هو تاريخ وفاته عام ١٢٢٥ هـ وفي شهر ذي الحجـة بالذات ، هذا التاريخ الذي لم يختلف فيه أحد ، ذلك ابن بشر أوضح هذا التاريخ في أحداث عام ١٢٢٥ هـ عندما قال : « وفي شهر ذي الحجة من هذه السنة توفي الشيخ العلامة والحبر الفهامـة حسين بن غنام الاحسائي » (عنوان المجد ١ : ١٤٤) ·

نشأ ابن غنام في الاحساء في بيت علم وقد عرف من أسرته عدة علماء كما قال ابن عبد القادر في تحفة المستفيد (٢ : ١٠٤) فهو احسائي النشأة والولادة ·

واستقر به المقام بالدرعية عندما توجه اليهـا في عهد الامام عبد العزيز بن محمد (١١٣٧ ـ ١٢١٨ هـ) (١٧٢٠ ـ ١٨٠٣ م) في حيـاة الشيـخ محمد بـن عبد الوهاب (١١١٥ ـ ١٢٠٦ هـ) (١٧٠٣ ـ ١٧٩٢ م رحمهما الله ، كمـا قال بذلك عبد الرحمن بـن عبد اللطيف في كتابه : مـن مشاهير علمـاء نجد وغيرهم ص ١٨٥ ، فهو نجدي الاستقرار والشهرة · ولكن ابن عبد القادر يقـول في تحفة المستفيد (٢ : ١٠٤) بأن ابن غنـام (٠٠٠ ـ ١١٢٥ هـ ، ٠٠٠ ـ ١٨١١ م) قد نقله الامام سعود بن عبد العزيز (١١٦٣ ـ ١٢٢٩ هـ ، ١٧٥٠ ـ ١٨١٤ م) الـى الدرعية في وقت نهضتها ·

وفي نظري أن الرأي الاول أقرب للصواب ، لأن ابن غنام عندما ألف تاريخه كان يريد قصره على حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، كمـا يتراءى من عنوانه (روضة الافكار والافهام لمرتاد حال الشيخ الامام محمد بن عبد الوهاب) ·

هذا بالنسبة للعنوان أما بالنسبة للمحتوى فهو يدور في : حال الجزيرة والاحساء ونجد قبل ظهور الامام رحمه الله بدعوته الاصلاحية ، ثم يسير متتبعا لهذه الحركة ، ويطيل في الخاتمة التي هي عن وفاة الشيخ وأثرها النفسي والشعوري (١ : ٥٠ ـ ٦٠) ، كما كرر خبر وفاته في أحداث عام ١٢٠٦ هـ (٢ : ١٥٤) .

وما القصائد التي أوردها في رثائه الا تعبير عن شعور المؤلف تجاه هذا المصلح الكبير ودوره العقائدي في نقل سكان الجزيرة خاصة من حياة اللظمة والضلال ، والعزلة والانطواء ، الى حياة التفتح والنور ، ومعرفة الدين الاسلامي واعتناقه عن بصيرة وفهم ، كما يتجلى ذلك في ايقاظ الشعور الاسلامي لدى المسلمين عامة .

فارتباط ابن غنام تاريخيا وشعوريا بالشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله جعلني أرجح الرأي الاول : ذلك ان ابن غنام لا بد وأن يكون لازم الشيخ في حياته في الدرعية ، وهذه الملازمة لا تتأتى وابن غنام لم يقدم الدرعية الا بعد ولاية الامام سعود بن عبد العزيز .

ومعروف بأن سعودا لم يتسنم الامر الا بعد قتل والده في عام ١٢١٨ هـ ، وفي هذا التاريخ يكون الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد فارق الحياة الى الدار الآخرة بمدة مقدارها اثنا عشر عاما . ولعل سؤالا يتبادر للذهن : الا يمكن أن يكون الامام سعود قد استقدم ابن غنام في حياة والده ؟

وهذا محتمل الا أن عبارة ابن عبد القادر « الامام سعود » تبعد هذا الاحتمال، لأن المفهوم منها اعتلاؤه السلطة ... فلو قال : « استقدمه الامير سعود ـ أو عندما كان أميرا » لانسجم مع القول وفي هذه الحالة لا نحتاج الى ترجيح .

وبالتالي فاننا لا نستطيع تحديد السنة التي قدم فيها الى الدرعية ، الا أن الحركة العلمية المزدهرة فيها ، والشعور الديني العميق كانا خلف نزوحه من بلده الذي ولد فيه وتعلم ، الى موطن جديد يجذب ذوي المواهب ومنهم ابن غنام .

والشيخ حمد الجاسر (مجلة العرب ج٩ مجلد ٥) يميل مع ابن عبد القادر في ترجيحه أن ابن غنام لم يقدم الدرعية الا بعد ولاية سعود بن عبد العزيز بن محمد عام ١٢١٨ هـ .

وبالتالي فانني أميل الى أن انتقاله الى الدرعية في حدود عام ١٢٠٠ هـ للأسباب التالية :

١ ـ ان عهد الامام عبد العزيز بن محمد الذي بدأ بوفاة والده محمد رحمهما الله عام ١١٧٩ هـ كان عهد تدعيم وبناء وتوسع في نشر الدعوة ، ولم يبدأ الاستقرار العلمي الا في حدود عام ١٢٠٠ هـ ، وان كانت جذوره قد بدأت مع قيام دعوة الاصلاح التي بدأها الامامان محمد بن سعود ، ومحمد ابن عبد الوهاب رحمهما الله.

٢ ـ ان سعودا في حدود هذا التاريخ قد اشتد عوده ، وكان عضد والده ، وقائد الغزوات ، ولا يستبعد مع ذلك أن يكون هو الذي استقدم ابن غنام عندما كان أميرا ، ذلك أن الأسرة السعودية قد عرفت منذ نشأت الدولة السعودية بحب العلم ، واستقدام العلماء واحترامهم واكرامهم .

٣ ـ ان هذا التاريخ يتيح لابن غنام ملازمة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ست سنوات قبل وفاته وهي مدة كافية ، كفيلة بأن تجعله يرتبط به شعوريا ليتجلى ذلك في مؤلفه التاريخي وقصائده فيه ، والاشادة بمكانته .

٤ ـ أما قصيدته التي قالها في قدوم الامير سعود الاحساء بعد قتل «تويني» عام ١٢١٢ هـ مهنئا للأمير سعود ولأبيه عبد العزيز (تاريخه ٢ : ٢٣٧ ـ ٢٤٢ هـ) فهي لا تدل قطعيا بأن ابن غنام كان مقيما في الاحساء ، ولم يرتحل للدرعية ، بل من الأرجح أن يكون قد ارتبط بهذه الأسرة الكريمة قبل هذا التايرخ ، وانه شارك أهالي الاحساء في التعبير عن هذا الشعور لأن «تويني» هذا قد أقض مضجعهم قبل قتله بسنوات كما أبان عن ذلك في تاريخه .

٥ ـ ان أحد تلاميذه في العربية بعد انتقاله للدرعية كما حكاه ابن بشر (١٢١٠ ـ ١٢٩٠ هـ ، ١٧٩٥ ـ ١٨٧٣ م) (عنوان المجد ١ : ١٤٤) محمد بن ناصر بن معمر (٠٠٠ ـ ١٢٢٥ هـ) ، وهذا قد بعثه الامام عبد العزيز بن محمد في عام ١٢١١ هـ الى مكة ليناظر علماءها في مسائل العقيدة ، فأظهر من البراعة وقوة الحجة ما كان موضع اعجاب علماء مكة .

وهو لن يصل لهذا المستوى الا بعد أن تمكن من اللغة العربية وأنهى دراسته مع شيخه ابن غنام .

مذهبه :

اختلف الباحثون في حياة هذا المؤرخ والاديب عن المذهب الذي ينتمي اليه في الفروع :

١ ــ قال الشيخ عبد الرحمن بن قاسم في الدرر السنية (٢ : ٢٤) : انه شافعي ·

٢ ــ وقال محمد بن عبد القادر في تحفة المستفيد (٢ : ١٠٤) انه مالكي ، كما تابعه في هذا القول كل من الشيخ حمد الجاسر (مجلة العرب ج١ م٥) ، وعبد الرحمن بن عبد اللطيف (من مشاهير علماء نجد وغيرهم ١٨٥) والدكتور عبد العزيز الخويطر (عثمان بن بشر منهجه ومصادره ص ٧) ·

٣ ــ وقال اسماعيل باشا في هدية العارفين (١ : ٣٢٨) انه حنبلي وتابعه في ذلك عمر رضا كحالة في معجم المؤلفين (٣ : ٣١٧) ·

وعندما نريد ترجيح رأي واحد من هذه الثلاثة نجد أكثرها احتمالا الرأي الثالث ·

ذلك أن تلاميذه والعلماء المحيطين به ، كلهم على مذهب الامام أحمد بن حنبل، فهو جزء من هذا الكل ، يتعلم ويعلم ويناقش ويسجل في مجتمع لم تتطور فيه الوسائل العلمية ، وتتوفر معلوماتها · هذا من جهة ، ومن أخرى فان مذهب الامام أحمد سائد في الاحساء قبل انتقال ابن غنام منها ، وهذا في نظري أمكن دليل على انه حنبلي المذهب ·

وبالنسبة للرأي الاول لا نميل اليه لسببين :

١ ــ ان أسرته مالكية المذهب ·· حيث نشأ وتعلم في حياته الاولى في الاحساء ·

٢ ــ ان الامام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، الذي لازمه ابن غنام في حياته الثانية بالدرعية كان يسير في الفروع على مذهب الامام أحمد بن حنبل رحمه الله ·

ولذا نستبعد أن يكون شافعيا لأن اتجاهه العلمي في الاحساء والدرعية لم يهيء له ذلك · أما ترجيح ابن عبد القادر ، والشيخ حمد الجاسر ، وعبد الرحمن ابن عبد اللطيف ، والدكتور عبد العزيز الخويطر : انه مالكي فله ما يبرره باعتبار أن مذهب أسرته مالكي ، ومن جهة أخرى فان مذهب الامام مالك سائد في الاحساء ·

ولكن تمذهب أسرته بالمالكية ليس دليلا قاطعا بمالكية ابن غنام ، وحكمنا بذلك يوقعنا فيما يسميه المنطقيون : الدور والمصادرة ·· ذلك أننا حكمنا بمالكيته

بناء على مالكية أسرته في حين أنه لا يثبت أنه مالكي المذهب الا باعتناقه هو لمذهب الامام مالك ، سواء عرف عنه ذلك أو ألف فيه دوافع عن الفروع التي ينفرد بها الامام مالك ·

وهذا لا يسبين الا بتتبع آثاره العلمية وآرائه فيها ، ولم نجد من نقل شيئا من ذلك عنه ليثبت مالكيته على هذا الأساس ·

تاثره وتاثيره :

لقد تأثر ابن غنام بامام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله فكان مرتبطا به روحا ومعنى ، فسجل حياته وتابع دعوته ، ورصد الوقائع الحربية والغزوات لانتشار هذه الدعوى وما جرى فيها من أحداث ، خلال فترة الازدهار في الدولة السعودية الاولى بزعامة ثلاثة من أئمتها هم : محمد بن سعود (٠٠٠ ـ ١١٧٩ ه ، ٠٠٠ ـ ١٧٦٥ م) ، وابنه عبد العزيز (١١٣٧ ـ ١٢١٨ ه ، ١٧٢٠ ـ ١٨٠٣ م) ، وحفيده سعود بن عبد العزيز بن محمد (١١٦٣ ـ ١٢٢٩ ه ، ١٧٥٠ ـ ١٨١٤ م) ·

ولم نجد في تاريخه ما يدل على أنه عول في النقل على غيره أو استفاد منه · وهذه عادة غير مستحسنة فلعله استفاد من غيره ولكنه تجاهل المنقول عنه ، خاصة وانه قد عرف قبله بعض المؤرخين ممن وصلت الينا أخبارهم مثل :

أحمد بن بسام (٠٠٠ ـ ١٠٤٠ ه) ، وأحمد المنقور (٠٠٠ ـ ١١٢٥ ه) ، ومحمد بن ربيعة العوسجي (٠٠٠ ـ ١١٥٨ ه) ، وعبدالله بن عصيب (٠٠٠ ـ ١١٦١ ه) ، وابرهيم بن أحمد بن يوسف (١١٤٦ ـ ١٢٠٦ ه) المتوفي في دمشق ·

كما يلاحظ المتتبع لتاريخ ابن بشر أنه استقى أغلب معلوماته من ابن غنام ، وقد بدأ في تاريخه من بداية ابن غنام عام ١١٥٨ ه ولكنه لا يميل اليه أيضا ·

وهذه عادة سار عليها ابرهيم بن عيسى (١٢٧٠ ـ ١٣٤٣ ه) أيضا ·

وعلى العموم فان أغلب الاحداث التاريخية ، كلها كانت وقائعها قريبة العهد من ابن غنام · ولا نحب أن نحمله أكثر مما يجب فنقول انه نقل هذه الاحداث من غيره ولكنه تجاهله ، بل نقول ان ابن غنام رصد هذه المعلومات من أحداث عصره وما هو سائد في مجتمعه ·

فكان تاريخه يحدد معلومات قريبة العهد ، فهو يبدؤه من عام ١١٥٨ ه وينتهي الى عام ١٢١٢ ه . ولا بد أنه تأثر بعلماء عصره المحيطين به ، الا أنه لم يستبن لنا شخصيات معينة أخذ عنها العلم ، أو تأثر بها في الاتجاه ، الا ما رأيناه من اقتفاء لأثر الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ذلك أن تاريخه أوسع مرجع لحياة الامام محمد رحمه الله . أو ما نقله من رسائل ومسائل نسبها لأصحابها .

وقد اعتبره عمر رضا كحالة في معجم المؤلفين (٣ : ٣١٧) من تلاميذ الشيخ محمد بن عبد الوهاب . أما عن تلاميذه الذين أخذوا عنه العربية في الدرعية فان ابن بشر (٢١٠ ١ـ ١٢٩٠ ه) وهو أقرب المؤرخين لابن غنام (٠٠٠ ـ ١٢٢٥ ه) لم يذكر من تلاميذه الذين أخذوا عنه العربية في الدرعية مع أنهم كثيرون الا : حمد بن ناصر بن معمر (٠٠٠ ـ ١٢٢٥ ه) ، وسليمان بن عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب (١٢٠٠ ـ ١٢٣٣ ه) .

ولكننا نعتبر ابن غنام بتاريخه هذا استاذ جيل : اقتفى أثره عدد كبير أخذوا معلوماتهم التاريخية عنه .

وأول تلاميذه في هذا التخصص هو ابن بشر نفسه اذ كان كتاب ابن غنام مصدرا مهما في تاريخ الدولة السعودية الاولى وما واكبها من أحداث ـ وان كان قد وقف عند عام ١٢١٢ ه أيام عزها ومنعتها ، بيد أنه توفي بعد هذا التاريخ بثلاث عشرة سنة . كما يعتبر مصدرا مهما لكل كاتب يبحث عن تاريخ نجد والجزيرة العربية في هذه الحقبة أو يتتبع حياة الامام الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

ومن هذا نقول بأن ابرهيم بن عيسى (١٢٧٠ ـ ١٣٤٣ ه) في تاريخه ، وعبدالله فلبي في كتابه : تاريخ نجد ، وغيرهما من الباحثين حديثا في حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، أو تاريخ الدولة السعودية الأولى قد استفادوا من ابن غنام وعولوا في معلوماتهم عليه . وبهذا نعتبره أول راصد لتاريخ نجد وأحداثها لأن من سبقه لا يمتازون بالتتبع الموضوعي للمنطقة كاملة كما هو منهج ابن غنام .

ولئن كان ابن غنام ـ وهذا هو المأخذ عليه من كل دارس لتاريخه ـ يعتمد على السجع الممل ، وحشده الكلمات المترادفة التي ترسخ هذا السجع المتكلف ، فان ذلك لا ينقص من قيمة كتابه كمرجع تاريخي لفترة من الزمن عاصرها وسجل أحداثها . ولعل ابن غنام في سجعه هذا وبحكم علاقته باللغة العربية لأنه كان أستاذا لها في الدرعية ، قد تأثر بالنثر في العصور الوسطى ابان ركود اللغة العربية ، وركونها الى السجع والاحتفاء بالمحسنات البديعية .

وقد تكون هذه الطريقة مقبولة في عصر المؤلف ولها مريدون ، ولكنها في العصر الحاضر أصبحت طريقة ممقوتة ومملة ، تذهب بالقارىء عن الهدف الذي اتجه اليه ، وتبعده عن تتبع الأحداث وانسجامها .

تاريخه :

لقد أخرج الناشر لكتاب ابن غنام في طبعته الاولى عام ١٣٦٨ هـ عبد المحسن أبابطين) هذا المؤلف في جزأيه تحت اسم تاريخ نجد ، ولم يكن ابن غنام قد قصد هذه التسمية . اذ كانت التسمية الحقيقية للكتاب بادىء ذي بدء : « روضة الأفكار والافهام لمرتاد حال الامام » ، قصره على حياة الشيخ محمد ورسائله ، وحالة نجد والاحساء وما وقعتا فيه من الشرك وغيره .

ثم أتبعه بكتاب آخر سماه : « الغزوات البيانية والفتوحات الربانية ». تعرض فيه المؤلف لتاريخ الحوادث والغزوات التي واكبت الدعوة الاصلاحية وانتشارها وقيام الدولة السعودية الاولى ، ووقف عند عام ١٢١٢ هـ .

ولعل الناشر عندما أعطاه هذه التسمية : أراد أولا أن يضفي عليه طابعا مميزا ، وأن يضم الكتابين تحت مسمى واحد ، وأن يشمل التسميات المختلفة فهو يقول : « تاريخ نجد ــ المسمى روضة الافكار والافهام لمرتاد حال الامام ، وتعداد غزوات ذوي الاسلام » ، فكلمة تاريخ نجد وحدها تكفي عن هذا الاسم الطويل ، ثم ان كلمة « المسمى » تدل على أن الاسم الاول من اطلاق الناشر .

ولا يغرب عن بالنا أن الباحثين قد أطلقوا تسميات متعددة على هذا المؤلف :

١ ــ فاسماعيل باشا في هدية العارفين (١ : ٣٢٨) يقول عن ابن غنام : « صنف التاريخ العجيب سماه ... » ولا يذكر الاسم .

٢ ــ وابن عبد القادر في تحفة المستفيد (٢ : ١٠٤) يقول : « روضة الافكار فيما كان في نجد من الاخبار » .

٣ ــ وابن قاسم في الدرر السنية (٢ : ٢٥) يقول : « روضة الافكار والافهام لمرتاد حال الشيخ حسين بن غنام الاحسائي » .

٤ ـ والزركلي يقول في الاعلام (٢ : ٢٧٤) : « روضة الافكار والافهام لمرتاد حال الامام ، وتعداد غزوات ذوي الاسلام » .

٥ ـ وعمر رضا كحالة يقول في معجم المؤلفين (٣ : ٣١٧) : « تصانيف تاريخ نجد ، العقد الثمين في شرح أحاديث أصول الدين ، روضة الافكار والافهام لمرتاد حال الامام ، وتعداد غزوات ذوي الاسلام » . فهنا جعلهما كحالة كتابين وليسا كتابا واحدا ولم يقل بذلك غيره .

ومن المؤسف أن نجد ابن بشر يتجاهل ذكر هذا التاريخ في الوقت الذي يسمي لنا من مؤلفاته : « العقد الثمين في شرح أحاديث أصول الدين » .

وفي نظري أنه كناشر قد أحسن صنعا بهذه التسمية فهي تسمية مختصرة تنبىء عن محتوى الكتاب .

وقد يكون الناشر استقاها مما تعارف عليه الناس ، أو من مسمى تاريخ عثمان بن بشر : « عنوان المجد في تاريخ نجد » .

ثم لعل عبدالله فلبي قد استفاد منهما بهذه التسمية عندما سمى مؤلفه عن تاريخ الدولة السعودية : «تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية» .

وعندما نستعرض كتاب ابن غنام فان القارىء لا يجده كتابا خالصا للتاريخ.. بل هو :

١ ـ استعراض لحالة نجد والاحساء ، وما وقعتا فيه من الشرك وغيره قبل قيام الدعوة الاصلاحية على يد الامامين محمد بن سعود ، ومحمد بن عبد الوهاب رحمهما الله .

٢ ـ بيان التوحيد وما يجب على كل مسلم ، وقد استعرض في ذلك الاحاديث الصحيحة ، وآراء بعض السلف كابن تيمية ، وأوضح الشرك الأصغر كالحلف بغير الله في استعراض مستفيض .

٣ ـ رسائل وردود للشيخ محمد بن عبد الوهاب وغيره في الدفاع عن الدعوة وتفنيد الآراء التي تعارضها ، وتوضيح معالم الدين الاسلامي والآراء الصحيحة في القبور ، وقصة الخضر وموسى عليهما السلام .

٤ ـ حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ·· ووفاته وبعض ما قيل في رثائه من أشعار ·

٥ ـ استعرض الوقائع والغزوات من عام ١١٦١ هـ ـ عام ١٢١٢ هـ ، كما ذكر السبب الذي حمله على ذلك ، وذكر بعض الحوادث لثلاثة اعوام سبقت هذا التاريخ من عام ١١٥٨ هـ ·

٦ ـ يتخلل موضوعاته بعض القصائد التي قالها حسب المناسبات ، ويورد أبياتا شعرية يسوقها كشواهد لما يتكلم عنه ·

وهذه الطريقة التي سار عليها ابن غنام تختلف عن طريقة ابن بشر الذي قصر مؤلفه على الناحية التاريخية فقط ·

وهذا ما سار عليه ابن عيسى فيما بعد وغيره ·

ولا ملامة على ابن غنام في طريقته هذه ، ذلك أن أسبقيته في التأليف ·· وحماسه الديني ، وثقافته العربية ·

هذه المسببات جعلت جوانبها المختلفة تؤثر في نفسيته ، فيسجل أحاسيسه عنها في مؤلفه الذي قصد أن يكون تاريخيا ·

ثم ان المتتبع لابن غنام لا يلومه في ذلك ، فقد درج بعض الأولين قبله على هذه الطريقة ، اذ كانت كتب التراث والتاريخ تحظى بكثير من ذلك ·

أما عن طبعات هذا الكتاب ومخطوطاته فقد تكفل كل من الشيخ حمد الجاسر في مجلة العرب (ج٩ م٥) ، وعبد الرحمن بن عبد اللطيف في كتابه : من مشاهير علماء نجد وغيرهم (١٨٥ ـ ٢٠١) بايضاح الطبعات وما فيها من زيادات أو نقص ·

ابن غنام أديبا :

ظهر ابن غنام ابان التفتح الفكري في نجد والاحساء ، ونشوء العصر الذهبي للأدب والعلم ، فهيأه تطلعه العلمي ، ونبوغه الفكري الى تبوء مكانة عالية ألا وهي تدريس اللغة العربية لخيرة علماء الدرعية وأكابرها ، فكانت له اليد الطولى كما قال ابن بشر · ويتمثل التراث الأدبي الذي تركه بن غنام نثرا وشعرا في :

أسلوبه المسجوع في مؤلفاته وخاصة الكتاب الذي نحن بصدده ، وحرصه على التعمق في المعاني اللفظية والغوص على الكلمات التي تتلاءم مع سجعه مدلا بذلك على مستواه في هذا الجانب ٠

ومع أننا لم نجد له نثرا فنيا مستقلا يمكن دراسته ، وبيان منزلته الادبية على ضوئه ٠٠ الا أن الدكتور محمد الشامخ في كتابه النثر الأدبي في المملكة العربية السعودية ١٩٠٠ ـ ١٩٤٥ م [٣١ ـ ٣٣] عندما قال « لعل كتب التاريخ من أهم المؤلفات التي يمكن لدارس النثر الأدبي أن يجد فيها من النصوص ما يدل على مستوى الأسلوب الكتابي في هذه الحقبة ، ذلك لأن هذه المؤلفات كانت تحرر حينئذ بأسلوب يشبه الأسلوب الادبي من حيث استخدام السجع واطلاق العنان أحيانا لسبحات الخيال والعواطف الذاتية » ٠

ثم قوله بعد أن استعرض انموذجا لنثره في سرد الوقائع التاريخية ووصفها : ومن الواضح أن ابن غنام لم يكتف هنا بتسجيل الاحداث التاريخية ، بل أراد أن يصور الخواطر النفسية والصراع الانساني ، واذا أباح لنفسه كذلك أن يفسر حوادث التاريخ تفسيرا ذاتيا ، وأن يضيف اليها ما رأى أن من الممكن أن يقع حدوثه ، فقد جاء أسلوبه التاريخي شبيها بالاسلوب الملحمي ، وفي الحقيقة أن القارىء يكاد ينسى ما للحادثة من قيمة تاريخية ، وينصرف الى ما فيها من متعة قصصية ، وقيمة أدبية ، رغم ما التزمه الكاتب من سجع عاق سلاسة الرواية ، وقلل من حيويتها ، الا أن أسلوبه قد تميز بالوضوح ، واتسم بالقدرة على تصوير المواقف المتأزمة ، والصراع النفسي » ٠

فقد كان يقصد في نظري بيان منزلة ابن غنام النثرية ، وان منهجه التاريخي ما هو الا سلوك منهجي في الادب برز في طريقة متميزة ، مع ثقافة عربية واسعة وتصوير بديع للمواقف المتأزمة بعبارات تعطي مدلولا خاصا ٠

والدكتور بكري شيخ أمين في كتابه الحركة الادبية في المملكة العربية السعودية عندما استعرض في الفصل الثاني : التأليف التاريخي ـ الادبي (٦٠٩ ـ ٦٤٠) تكلم عرضا عن ابن غنام كواحد من هؤلاء المؤرخين في عبارة مجملة لا تبني عن رأي خاص فيه ٠ أما الشعر فان ابن غنام قد أودع كتابه التاريخي بعضا منه ٠ كما عرف له أشعار أخرى متناثرة يقولها في مناسبات مختلفة ، وهي وان كانت لم تستوعب في ديوان خاص به ، فانه جدير بالدراسة والجمع ٠

وأبرز ما يظهر للقارىء في شعر ابن غنام :

١ ـ سعة الخيال ، والعمق في الالفاظ والمعاني ·

٢ ـ اختيار المناسبات والمشاركة فيها ·

٣ ـ الوصف التصويري كما يتضح ذلك في قصيدته الهائية (٢ : ٧١ من تاريخه) ، بحيث يتجلى التعبير الملحمي عندما يصف الجيوش والوقائع النازلة على الاعداء في تصوير معبر عن الحقيقة ·

٤ ـ شعوره الديني يتغلب أحيانا على خياله الشاعري فتراه لا يتوسع في خياله التصويري لأن هاجسه الديني وشعوره الوجداني تحركا في نفسه فانجذب اليهما ·

٥ ـ طويل النفس مما يدل على شاعرية متمكنة ، وخيال خصب ، وثروة لغوية ، كما يتراءى ذلك للقارىء من قصيدته الرائية في تهنئة الامير سعود ، والامام عبد العزيز رحمهما الله بعد قتل تويني ، وهذه القصيدة تبلغ مائة وثمانية عشر بيتا (تاريخ ٢ : ٢٣٧ ـ ٢٤٢) ·

٦ ـ يودع كثيرا من أشعاره معلومات تاريخية ودينية من باب الاستشهاد والمقارنة ·

وعلى العموم فان ابن غنام في شعره أمكن وأجزل منه في نثره ، ولذا يبرز في نثره خيال الشاعر وأحاسيسه حينما يخاطب فئة معينة من الناس ·

سبب ـ ورجاء :

وعندما أخذت هذا الكتاب نموذجا لكتب التراث لدينا فانني لم آخذه :

١ ـ لندرته ، فهو كتاب مطبوع « قد طبع مرتين » ·

٢ ـ ولم نأخذه لأسلوبه التاريخي ، واستقصائه للمعلومات ، فهو يسلك طريق السجع الممل أحيانا ، ولم يستقص تاريخ نجد سواء منها الاحداث التي سبقته ، وسبقت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وقيام الدولة السعودية الاولى ، بل لم يحط بأخبار نجد والجزيرة العربية في عصره هو ·

ولكنني اخترته هنا ككتاب من كتب التراث العملي لنجد والجزيرة العربية للأسباب التالية :

١ ـ انه يعتبر أهم مصدر يستند اليه الباحثون وفي مقدمتهم ابن بشر كمرجع للوقائع التي حدثت وصاحبت قيام الدعوة الاصلاحية على يد الامامين محمد بن سعود ، ومحمد بن عبد الوهاب رحمهما الله .

٢ ـ انه من أهم المراجع التي أنارت الطريق للباحثين حديثا في حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب باعتبار المؤلف واحدا من تلاميذه .

٣ ـ ان ابن غنام بمؤلفه هذا يعتبر أول من فتح باب التأليف التاريخي في نجد ، وبدأ بذلك عهدا مضيئا انقشع عن ظلمة دامت قرابة ستة قرون .

ولذا فانه مهما حصل فيه من اخطاء ، ومهما أخذه عليه بعض الدارسين والباحثين من مآخذ فانني اعتبرها حسنات . ذلك أن الفضل دائما للسابق وان من يأتي بعده مسترشد برأيه ، ومجمل لما وقع فيه غيره من أخطاء علمية أو فنية أو شكلية . واذا صح لنا أن نعيد الريادة التاريخية في نجد في شخص معين فان ابن غنام فيما وصل اليه علمي هو الرائد للتأليف التاريخي رغم انه لم يقصر كتابه على التاريخ . وان كان ابن بشر قد استفاد منه وتوسع فيما سار فيه من منهج وتحاشى ما وقع فيه ابن غنام من سجع ، فان لابن بشر فضل التوسع التاريخي والتخصص الموضوعي . وعلى العموم فان المدونات التاريخية التي سبقت ابن غنام ما هي الا نبذ تاريخية محدودة الوقائع والحوادث ، ولم يكن ابن غنام بأحسن حظ منهم ، ولكنه أشمل ، واكثر مادة .

وان الباحث المتتبع لن يعدم أن يجد معلومات متناثرة ستكشف عنها الايام ، وتتمثل في نظري هذه النبذ في :

١ ـ وثائق مبايعات وأملاك متداولة كما هي العادة المتبعة في نجد في الماضي القريب والبعيد ، بقرن بعض المعلومات عن الاملاك المتداولة وربطها بحوادث زمنية ، أو وقائع تاريخية لها شهرة في البيئة المحلية .

٢ ـ معلومات عن أقدمية المدن والقرى وبنائها واول من سكنها كارتباط بعض أسر معينة وانتقال بعض القبائل من مكان لآخر ، خاصة وأن مراعي نجد كانت موطن نزاع بين القبائل .

٣ ـ مخطوطات عند بعض الافراد أو في مكتبات العالم لم يمط اللثام عنها ، أو نسخ اخرى عن مخطوطات معروفة ، الا انها تمتاز بالشمول والتوسع والتحشيات حيث أخبرني أحد الاخوة الكرام بأنه يملك مخطوطة عن تاريخ ابن عيسى تفوق في محتواها ما نشره الشيخ حمد الجاسر .

٤ ـ صحيح أن نجدا لم تستلفت نظر المستشرقين والباحثين الا بعدما قام الشيخ محمد بن عبد الوهاب بدعوته الاصلاحية تؤازره الأسرة السعودية ، لكننا مع ذلك لا نعدم الامل في استكشاف معلومات تاريخية رصدها بعض الرحالة، أو الراغبين في جمع المعلومات من الحجاج أو الرحالين .

٥ ـ لن يغرب عن بال علماء الحرمين ومؤرخيهما عند رصدهم التاريخي الاشارة الى نجد في المعلومات التي يدونونها ، ذلك أن نجدا ذات علاقة وطيدة بالحرمين لقرب المسافة ، واتحاد الادارة فقد كانت العلاقة الادارية وهي أمتن الروابط وأقواها متصلة من قديم الزمان .

ولذا فانني اتوقع أن الباحث لن يعدم وجود معلومات متناثرة وقوية ، عن فترة كنا نظنها مفقودة وهي ما بين القرن الخامس الى الحادي عشر ، ومكان ذلك في نظري المكتبات الخاصة ، ومكتبات الهند ، وتركيا وأوروبا والمغرب العربي ، ولن تند معلومات تاتي عرضا في تاريخ اليمن .

ولعل في جهود دارة الملك عبد العزيز المتمثلة في مساعي معالي الشيخ حسن ابن عبدالله ما يعيد الأمل ويبعث الحماس ، بتكوين هيئة خاصة ترعى هذا التراث وتلم شتاته ، وتعمل على تجميعه من مظانه ، وتخرجه في جهود مثمرة ، على هيئة تاريخ عام ومتكامل للبلاد ، متسلسل الوقائع والاحداث ، ويستقي معلوماته ومادته من المصادر الحالية المبعثرة ، والمنتظرة ولو كانت نتفا متناثرة . فهي بتجميعها وتنسيقها وصياغتها في أماكنها وسنواتها المتسلسلة تعطي عملا متكاملا . وما يحيي تراث أي أمة غير ابنائها ، فهم أقدر على استقصاء المعلومات وربطها بأماكنها .

فالجهود الفردية لا تستطيع تغطية ذلك وجمعه .

الرياض في ١٣٩٨/١/٢٢ هـ **الدكتور محمد الشويعر**

المصادر والهوامش

(١) الأعلام ـ خير الدين الزركلي ، الطبعة الثانية ـ بيروت ـ ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ .

(٢) تاريخ بعض الحوادث في نجد ـ تاليف ابرهيم بن عيسى وتقديم الشيخ حمد الجاسر . منورات دار اليمامة للطباعة والنشر والترجمة .

(٣) تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية ـ عبدالله فلبي ، والمكتبة الأهلية ببيروت .

(٤) تاريخ نجد ـ المسمى روضة الافكار والأفهام لمرتاد حال الامام وتعداد غزوات ذوي الاسلام للشيخ حسين بن غنام ـ الناشر عبد المحسن ابابطين . الطبعة الاولى ١٩٦٨ هـ ـ ١٩٤٩ . شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي بالقاهرة .

(٥) تاريخ نجد ، للشيخ حسين بن غنام ، حرره وحققه الدكتور ناصر الدين الاسد ، قابله على الأصل الشيخ عبد العزيز بن محمد بن ابرهيم ـ الطبعة الاولى .

(٦) تحة المستفيد بتاريخ الاحساء القديم والجديد ـ محمد بن عبدالله بن عبد القادر . الطبعة الاولى .

(٧) الحركة الادبية في المملكة العربية السعودية ـ الدكتور بكري شيخ امين .

(٨) الدرر السنية في الأجوبة النجدية ـ عبد الرحمن بن قاسم ، ج١٢ . الطبعة الاولى . مؤسسة النور للطباعة ، ١٣٩٢ هـ .

(٩) عثمان بن بشر ، منهجه ومصادره ـ الدكتور عبد العزيز الخويطر . الطبعة الثانية ، مطابع اليمامة في الرياض .

(١٠) عقد الدرر ـ ابرهيم بن عيسى . (المطابع الأهلية الوطنية بالرياض) .

(١١) عنوان المجد في تاريخ نجد ـ عثمان بن بشر .

(١٢) مشاهير علماء نجد وغيرهم ـ عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ . الطبعة الثانية ـ الرياض .

(١٣) مجلة العرب ـ تصدر عن دار اليمامة ـ الشيخ حمد الجاسر ، مجلد ٥ ، ج٩ ، ١٠ ، ١١ .

(١٤) معجم المؤلفين ـ عمر رضا كحالة ـ مطبعة الترقي ـ دمشق ، ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ .

(١٥) النثر الفني في المملكة العربية السعودية ١٩٠٠ ـ ١٩٤٥ م ـ الدكتور محمد عبد الرحمن الشامخ ـ الطبعة الاولى ١٣٩٥ هـ .

(١٦) هدية العارفين ـ اسماعيل باشا البغدادي ـ استانبول ، ١٩٥١ .